من الأدب في الأدب الشعبي الأردني

بقلم غالب هلسا

الحكاية الاولى : (١) اخذ الاب يلتهم لحم ابنه ويلقي بالعظام فتلتقطها ابنته وتضعها في صرة اعدتها . عندما انتهى الاب من طعامه دفنت الفتاة عظام اخيها تحت الشجرة النامية قرب الباب .

كانت امرأة الاب قد ذبحت الابن وطبخته وقدمته للاب فاكله دون ان يعلم انه يأكل لحم ولده . وتحول الابن الى عصفور اخضر يفرد عند فجر كل صباح ساردا ماحدث له : زوجة ابي ذبحتني ، ابوي اكلني ، اختي جمعت عظامي ووضعتها تحت الشجرة .

عندما يدرك الاب ماحدث يأمر بتجميع كومة كبيرة من الحطب ويلقي بزوجته فيها .

الحكاية الثانية : اعلنت ابنة الملك انها ستطرح ثلاثة اسئلة ومن استطاع الاجابة عليها فسيتزوجها ويلي الملك العجوز على عرشه ومن عجز فسيقطع رأسه .

اتى كثيرون واستمعوا الى الاسئلة وحاولوا الاجابة عليها ولكنهم عجزوا فجزت رؤوسهم ، وعلقت على شرفة القصر . ثم اتى شاب استمع الى الاسئلة وقال انه على استعداد لان يجيب عليها .

ذهب الشاب الى رجل حكيم واستشاره ، فاشار عليه الحكيم ان يذهب الى الغولة ويسألها ، ولكن عليه ـ حتى يصلها ـ ان يجتاز واديا مليئا بالحيوانات المفترسة والافاعي الضخمة . وقال له الحكيم ان احدا لم يجتز هذا الوادي وهو مفتح العينين اذ سيشله الرعب ويقع فريسة لتلك الحيوانات المفترسة ، ولذا فعليه ان يعصب عينيه وعيني حصانه. على قمة الجبل الذي يقع هذا الوادي على سفحه سيجد الغولة مستلقية رامية ثدييها خلفها ويجد طفليها يرضعان . فعليه ان يبعد احد الطفلين ويرضع من ثديها ثم يلقي عليها السلام ويسألها عما يريد . ويخوض الشاب الوادي ، والهول حوله : الافاعي تهجم عليه ، والاسود ترسل زئيرها المخيف وتعترض طريقه ، واصوات عجيبة تدعوه ان ينزع العصابة التي تغطي عينيه ولكنه يواصل سيره حتى يخلص من الوادي . على قمة الجبل يجد الغولة فيزيح احد طفليها ويرضع من ثديها ثم يلقي السلام . فترد الغولة : لولا انك رضعت من درتي لاكلت لحمك قبل عظامك . ايش بتريد ؟

فيلقي عليها الاسئلة ، فتقول انها لاتستطيع الاجابة عليها ولكن زوجها الغول الذي يسكن قمة الجبل المجاور ربما استطاع الاجابة عليها.وتنصحه الغولة ان يترفق به قبل ان يلقي عليه الاسئلة .

وينطلق الشاب الى بيت الغول فيجده نائما ، قد علا شخيره ، وشعره قد تجاوز المترين طولا ، واظفاره قد اتسخت وطالت وجسده قد امتلأ بالاقذار ترعى به صنوف الحشرات . فيقوم الشاب بقص شعره وتقليم اظفاره وغسل جسده بالماء والصابون ثم يصحيه من النوم ، وعندما يجد الغول ماهو عليه من نظافة يسر ويقول للشاب : لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك . أيش بتريد ؟ وعندما يلقي عليه الشاب الاسئلة يجيبه على سؤال منها ثم ينصحه بزيارة غول اخر ، أعلى مقاما منه ليدله على الباقي .

ويمضي الشاب في مغامرات متعددة ، مواجها مآزق كثيرة يصل في نهايتها الى معرفة الاجوبة على اسئلته .

وتسأله ابنة الملك ، عندما يعود ، ان كان قد توصل الى الاجوبة ،فيرد بالايجاب . فتقول له لك ماتريد ولكن لاتبح بالاجابة ، غير انه يصر على دعوة كبار رجال الدولةوالعظماء ويقول لهم ان الاجابة على السؤال الذي يقول : ماهي البيضة التي بلا صفار ، هي ان ابنة الملك تضاجع عبدها سرا وتحمل في احشائها طفلا منه . وهذا الطفل هو البيضة التي بلا صفار .

عند ذاك يصدر الملك امرا للرعية بان يقدم كل قادر كمية من الحطب ، فتتجمع منه كومة هائلة ، يشعل الملك فيها النار ويلقي بابنته فيها .

***

التعليق : اخترت هاتين الحكايتين لانهما تمثلان اتجاهين رئيسيين في الحكايات المتداولة بالريف الاردني في مواجهة موقف شديد الاثارة . اما الادب الشائع بين البدو فهو يعبر عن اتجاهات مختلفة تماما وهو على كل حال يمثل مرحلة حضارية متخلفة ليست مجال بحثنا الان .

فما هي طبيعة هذا الموقف ؟

الخطر الظاهري في الحكاية الاولى هي زوجة الاب ، ولكننا لو دققنا النظر في هذه الحكاية وفي الحكايات الاخرى المشابهة لرأينا ان امرأة الاب هي مجرد تحوير للموضوع الذي يسقط عليه الابن نقمته . ان الاحتجاج هنا موجه ضد الاب وذلك لعدة اسباب :

اولا : ان الاحتجاج هنا ، اصلا ، ضد الاب نفسه بسبب زواجه من امرأة اخرى غير الام .

ثانيا : ان اهمال الاب لابنائه وانصرافه الى زوجته الجديدة هو الذي مكنها من ذبح الابن وتقديم لحمه الى ابيه .

ثالثا : الاب هو الذي اكل لحم الابن .

رابعا : كما ان الطريقة التي عرض بها الاب في الجزء الاول من الحكاية ذات دلالة اذ يبدو لنا وهو لايكاد يحس بوجود ابنائه ولا يكاد يكون ابا بالمعنى المتعارف عليه اجتماعيا . انه هنا يضاجع امرأة غريبة ويمنحها ثقته وحنانه ، واما الابناء فهم مجرد عقبات في طريق سعادتهما.

فمن غير المعقول ان يكون هو نفس الاب الذي يحرق زوجته لانها قتلت ابنه . ان الجزء الاخير من الحكاية لايحرق امرأة الاب فقط ولكنه يعلن انتهاء رمزة للاب الذي يبطش بابنائه ويتلهمهم مشتركا في ذلك مع امرأة غريبة وخلق اب جديد ذي ملامح تقليدية ، اب اجتماعي .

اما بالنسبة للحكاية الثانية فالمسألة اكثر تعقيدا . ان ابنة الملك تمارس هنا هواية غريبة ، وهي القاء اسئلة يبدو انه من المستحيل الاجابة عليها لتجد مبررا لقتل اكبر عدد ممكن من الشبان . ان اباها الملك يحاول منع الشبان من الالتقاء بها ، فيقول لهم انها فتاة شريرة ومن الخير لهم ان يبتعدوا عنها . وفي النهاية يقوم بالقائها في النار .

وهكذا نجد ان الحكاية تعرض مظهرين للسلطة في كل منهما نتبين قسمات الاب كما تبدو للريفي الاردني في مرحلتين مختلفتين من حياته.

---

(١) ان بعض هذه الحكايات متداول في كثير من البلدان العربية ، ولكنني قصرت الحديث على الادب الشعبي في الاردن لانني استطيع ان اتكلم عنه بثقة .

المظهر الاول : ابنة الملك التي تملك سلطة الحكم بالموت ، وفي الوقت ذاته تمارس ـ خفية ـ علاقة جنسية مع عبدها . المظهر الاخر هو الملك ، الاب الاجتماعي الذي يرعى مصالح ابنائه .

نستطيع ان نتبين نفس هذا المدلول في موقف الشاب من الغول ، اذ يقوم هو نفسه بنزع جميع المظاهر الوحشية في الغول ويحوله الى الاب الاجتماعي المستعد لمساعدة ابنائه .

. ان الغول وهو نائم وجسده غارق في الاقذار كان مجرد وحش في حالة هجوع ، اذ لو صحا وهو على تلك الحال لالتهم الشاب ، وذلك بدليل قوله :

لولا سلامك سبق كلامك لاكلت لحمك قبل عظامك .

ولكنه مع زوال هذه المظاهر الوحشية انتهى كرمز للفزع والافتراس وتحول الى اب يبذل ما يستطيع ليساعد ابنا له يواجه مشكلة صعبة ، اذ يقول له :

ايش بتريد ؟

ومما يؤكد هذا التفسير الرحلة التي قام بها الشاب بعد ان قابل الحكيم . انها تمثل نكوصا الى مرحلة الطفولة التي تشكل بالنسبة للطفل منطقة امان حيث يشعر بانه ـ من ناحية وظيفية ـ جزء من امه ، وذلك لعدة اسباب :

اولا : الرضاعة من ثدي الغولة . والثدي في الفولكلور الاردني لا يحمل من دلالة سوى دلالة الامومة . انالدلالة الجنسية للنهد التي يضيفها الاد بالكلاسيكي غير موجودة في الادب الشعبي بل ان عكس هذه الدلالة هو الشائع . فمن المعروف في الريف انه اذا حاول احد ان يغتصب المرأة فانها تلجأ الى تعرية نهديها امامه مذكرة اياه بامه لتطفيء الدافع الجنسي عنده .

ثانيا : ان اجتياز وادي الرعب هو دلالة مكتملة للعودة الى مرحلة الطفولة .

اذن ان هذه العودة بجانب كونها رد فعل يلجأ اليه للهرب من موقف مثير للتوتر فهي ترتبط في ذهنه بذكريات مفزعة ، اذ كثيرا ما تجري العلاقة الجنسية بين الابوين في الريف على مشهد من الاطفال الذين ينامون معهما في فراش واحد ، وفي الوقت ذاته يكبح التعبير عن الغريزة الجنسية عند الاطفال والصبية بمنتهى القسوة ، وتخلق التقاليد الاجتماعية حولها هامة من الرعب . فعصب العينين خلال اجتياز الوادي هو محاولة لالغاء هذا الجانب من التجربة . ان فصل بعض الجوانب المؤلمة من التجربة عن جوانبها المثيرة للمتعة والارتياح هو احد ميكانزمات Mechanisms الشخصية التي اذا ما بولغ فيها فانها تؤدي الى انقسام الشخصية .

ثالثا : لقد جرى استجداء معونة الام ، الغولة ، في غياب الاب ،وهي رغبة قديمة عند الطفل في مراحله الاولى حيث يتمنى غياب الاب عن محيط الاسره .

رابعا : ان شدة تعقيد الموقف في الحكاية وانعدامالقدرة على مواجهته بواقعية تفتح السبيل لردود الفعل الهروبية .

في الريف الاردني :

« ماذا بيدي ؟ اطلب من ابيك » .

كما ان ردالغولة على مطلب الشاب هو الرد النموذجي لكل ام

ان على الشاب هنا ان يعود الى بداية الطريق اذ ان المأزق الذي تدفعه اليه امه يتطلب عودته من جديد لمواجهة الاب الذي سيلتهمه . ولهذا فهو يقوم بهذه العملية ـ عملية غسل وتقليم اظافر الغول ـ ليقضي بها على رمز الاب الذي كان في ذهنه عندما كان طفلا .

نستطيع هنا ان نلخص ما تقدم بان طبيعة الموقف هي احتجاج وثورة الابن على رمز معين للاب يأكل فيه الاب ابنه او يهدده بذلك ، وان هذا الرمز يتلاشى ليحل محله الاب الاجتماعي الذي يهتم بمصلحة ابنائه ويدفع عنهم الاذى .

ولقد تمت مواجهة الموقف باسلوبين : الاول استبدال الاب المرعب بالاب الاجتماعي : والثاني بالنكوص الى مرحلة الطفولة .

ولنا ملاحظتان على الطريقة التي تمت بها مواجهة الموقف .

الاولى : انه لم تبذل اية جهود لتغيير طبيعة الموقف ، انما اكتفي بتبرير Rationalisation الموقف والتكيف بالنسبة له .

الثانية : ان التبرير والتكيف يحملان طابع أماني الطفل في المراحل الاولى من حياته .

وقبل ان نسترسل في تحليل هذا الموقف والظروف التي تخلقه في نفس الفنان الشعبي وفي المجتمع الريفي الاردني اود ان اورد هنا اسطورتين عبرانيتين تحملان دلالات مشابهة للحكايتين اللتين اوردناهما في بداية هذا البحث .

*

حدث ان اراد يهوه ، الاله القبلي لبني اسرائيل ، ان يختبر مدى اخلاص ابراهيم له ، فقال له « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب الى ارض المريا ، وقدمه لي ضحية . » فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره واخذ اثنين من غلمانه معه واسحق ابنه وشقق حطبا ، وامر ابراهيم الغلامين ان ينتظرا وتوجه مع ابنه الى مكان التضحية . « وكلم اسحق ابراهيم اباه وقال يا ابي . فقال هانذا يا بني . فقال هوذا النار والحطب ولكن اين الخروف للمحرقة ؟ فقال ابراهيم الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني . فذهبا كلاهما معا . »

عندما اتيا المكان رتب ابراهيم الحطب وربط ابنه اسحق ووضعه فوق الحطب ثم تناول السكين . ولكن ملاكا ناداه قائلا لا تمد يدك الى الغلام لانه قد تأكد خوفك من يهوه واستعدادك لطاعته . ونظر ابراهيم وراءه فرأى كبشا في الغابة فقام اليه وذبحه وقدمه ضحية .

ان من يتأمل هذه الاسطورة وغيرها من الاساطير العبرانية يكتشف ان يهوه هو تجسيد لحوار الانسان مع الطبيعة ، هذا الحوار الذي يخرج منه الانسان مهزوما ذليلا امام قوى الطبيعة التي لم يكن باستطاعة الانسان انذاك ترويضها والسيطرة عليها .

فلذا لم يكن امامه الا الخضوع . الا ان خضوعه كان يستلزم ازالة التوتر الذي تثيره الهزيمة . لقد ازيل هنا بهذا الاسلوب الشائع في حكايات الاطفال اذ عندما يتأزم الموقف ويبدو ان كل مخرج مستحيل يظهر البطل او اي شيء اخر بمثل المصادفة وبحل تأزم الموقف .

ان ايوب يواجه موقفا مماثلا اذ قتلت الكوارث الطبيعية اولاده وزوجته ولم تبق على شيء يقتات به وملات جسده بالدمامل والجروح فلذا ينطلق احتجاجه على يهوه قائلا « ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر جروحي بلا سبب لا يدعنيآخذ نفسي ولكن يشبعني مرائر ... فلماذا اخرجتني من الرحم . كنت قد اسلمت الروح ولم ترني عين . فكنت كأني لم اكن فاقاد من الرحم الى القبر .

اليست ايامي قليلة . اترك . كف عني فاتبلج قليلا قبل ان اذهب ولا اعود الى ارض ظلمة وظل الموت . ارض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب واشراقها كالدجى .. »

الاسطورة العبرانية الاخرى ، ان يهوه امر يونان بن امتاي ان يهجر الحياة التي تمنحه الوفاق مع العالم والاشياء وان يواجه وحيدا « نينوى المدينة العظيمة لان شرها قد صعد امام الرب » . ان لحظة الانفصال عن عالمه تبعث في قلبه الفزع كما حدث لادم وحواء عندما خرجا من الغفلة وواجها العالم كذوات منفردة .

« فقام يونان ليهرب الى ترشيش من وجه الرب فنزل الى يافا » ودفع اجرة سفينة ذاهبة الى هنالك وسارت السفينة الى ترشيش .

فاستشاط غضب يهوه واحدث عاصفة هائلة كادت تحطم السفينة . وبينما اخذ البحارة يصلون ، كل منهم الى الهه ، لجأ يونان الى سلوك نكوصي . اذا « نزل الى جوف السفينة ونام نوما عميقا » .

ولكن البحارة الجزعين انتزعوه من سباته وصرخوا في وجهه : من انت ومن اين اتيت ؟ فقال لهم « انا عبراني وانا خائف من الرب اله

السماء الذي صنع البر والبحر » .

وامام عالم معاد متمثل في غضب يهوه وغضب الغرباء اندفع يونان الى جوف حوت عظيم « فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليال » رامزا بذلك الى النكوص لمرحلة الجنين وهو في رحم امه .

*

فما هو سبب هذه الثورة ضد الاب او ضد اي رمز يمثله ؟

ان الابحاث التي قام بها (فرويد) في هذا المجال ذات اهمية بالغة . فخلال تحليله للمرضى المصابين بالعصاب والهستيريا اكتشف عند هؤلاء رغبة عنيفة لاسترجاع او خلق اي رمز يمثل الاب او الام ثم محاولة التأثير عليه حتى يصبح موضع اعتماد وخضوع الشخصية المرضية .

من الصعب جدا ان نأخذ بتفسير فرويد لهذه الوقائع فنلخص النشاط الانساني كله في عقدتي اوديب والكثر وما يمكن ان تؤديا له . الا ان الفكرة الهامة التي اضافها فرويد هي اكتشافه لهذه الحقيقة وهي الرغبة البشرية الشاملة في التنصل من الحرية والتي تأخذ مظهرا ذا حدة خاصة عند العصابيين .

ان فرويد قد اكتشف هذه الحقيقة بالنسبة للانسان الاوروبي ، وهو انسان له ظروفه المختلفة ، الا اننا نستطيع ان نلمس نفس الظاهرة بالنسبة للانسان الريفي في الاردن .

فما هي الاسباب الموضوعية لهذه الظاهرة ؟

ان الحقيقة الاولى هي ان هذا الانسان يعيش ضمن ظروف لها طابع تحكمي قسري تتحكم فيه ولا يتحكم فيها . ولذا اصبح ايمانه بالقدر والاحساس بانه لا يستطيع ان يكون مسؤولا امام ظروفه تعبيرا عن علاقته بتلك الظروف .

الحقيقة الثانية هي انه ما دام كفاحه ضد الطبيعة لا ينبع من احساسه بحريته ومسؤوليته امامها ولكن بخضوعه لها ، وما دام ذلك يتم مع مجموعة من الناس قد استطاعت ان تستمر في البقاء من خلال توافق معين مع الطبيعة ، فلذا تأخذ علاقاته مع الطبيعة والمجتمع صورة الطقوس . ان هذه الطقوس تشكل تراثه الاجتماعي الذي يمثل تلاؤمه . فما هي طبيعة هذه الطقوس ؟

انها ، اولا ، تنظيم لعلاقة الانسان مع الطبيعة .

وهي ، ثانيا ، انعكاس لالقاء ثراء الانسان الداخلي على علاقته بالظروف المحيطة به .

وهي ، ثالثا ، تعبير عن احساس الانسان بانه جزء من تلك الظروف . فكيف نفسر ذلك ؟

ان الظاهرة الخارجية ـ سواء اكانت طبيعية ام اجتماعية ـ لا تكون بالنسبة له ظاهرة موضوعية محايدة . وانما تمثل مجموعة احاسيسه ـ كانسان يعيش في مجتمع معين ـ نحوها .

فالمطر بالنسبة له لا يكون ظاهرة طبيعية لها تفسيرها العلمي المستقل عن انفعاله بها ، وانما يتمثل فيها رجاؤه في موسم جيد وتوفر كمية كبيرة من المياه في الابار تكفيه مدة شهور الجفاف ، وخوفه من ان تتسبب الامطار في هدم بيته واغراق مزروعاته . وبكلمة اخرى الظاهرة الخارجية بالنسبة له هي انفعاله بها ولما كان انفعاله يستثار بتلك الظاهرة فهو يعتقد ان الانفعال كامن فيها .

الا ان هذا الانسان يحس بتلك الانفعالات بداخله ايضا بجانب وجودها في الظاهرة التي تثيرها . فهو لهذا يعتقد انه يستطيع ان يؤثر في الظاهرة من خلال سيطرته على الانفعالات التي تثيرها تلك السيطرة التي تأخذ شكل الطقوس والعادات الشائعة .

ومن هنا نشأ ايمانه بالسحر الذي يمكن تعريفه بانه السيطرة على الظروف الخارجية من خلال الارادة .

واذا قارنا السحر بالتفكير العلمي نجد ان نفس الدافع موجود عند الانسان الذي يفكر تفكيرا علميا وهي سيطرة الارادة الانسانية على الظروف ولكن ذلك يتم من معرفة قوانين الحركة المسيطرة على تلك الظروف .

وهناك نتائج اخرى لعلاقة الانسان الريفي بظروفه ، فاسقاط انفعالاته على ظروفه تؤدي الى احساسه بانه جزء منها ! كما ان اعتقاده بانه يستطيع السيطرة عليها من خلال الانفعالات المتخيلة انها كامنة فيها يؤدي الى احساسه بانها جزء منه .

ومن ناحية اخرى ، ما هو التأثير الذي يمكن ان يحدثه انفصال الانسان عن تلك الظروف والتحرر منها ؟

ان معنى ذلك انفصال الانسان عن الطقوس اي عن توافقه مع الطبيعة ومواجهته بكل ما يثير الفزع في القلب : الخوف من الموت ومن الاخرين ومن الطبيعة .

وهذا لا يعني بالطبع ان الخوف من هذه الاشياء غير موجود عنده في حالته العادية ، الا ان الخوف هنا يتلاشى من خلال ممارسة الطقوس التي تحول الاحاسيس الذاتية الى انفعالات تحس بها الجماعة ككل وتتخلص منها بواسطة الطقوس ، وتنقل الاهداف الذاتية الخاصة بالفرد الى اهداف للجماعة .

ان الشعور بالانفصال هو سبب الاحتجاجات المفزعة التي اطلقها ايوب ويونان كما انه يعبر عنها في الريف الاردني في كل حفلة زواج تتم . فعندما تغادر العروسة بيتها الى بيت الزوج تتحول اغاني العرس المرحة الى بكائيات فيها نفس التفجع وبنفس الالحان المميزة لبكائيات الام عندما تفقد ابنها فتقول المجموعة : « هيا بنا نودع العروس، نحن نودع وهي تسكب مدامعها . ثيابك يا اخت موشاة بقطيفة سوداء تصلح عصابة نرتديها يوم الفراق . ما هذا الغزال الذي ينسج على دولابه « مرة يبكي ومرة يودع احبابه » . « ياحسيرتي يا الاهل ما امر فرقاكم » وددت لو كان قلبي صخرا ليرتفع ويلاقيكم . اي حسرة تمزق قلبي عندما جفاني الاهل ، واخذوا ثمني ثم رموني بالغربة ، ما اشد عذاب الفراق ، انه يشبه غرز سلك حاد بالرأس . هل يعيش نبات (السوبد) اذا اقتلع من جذوره ؟ لقد خرجت من البيت يا اماه قبل ان اودع اخواتي ، خرجت من البيت قبل ان اودع صديقاتي ... »

ولعله من الجدير بالذكر هنا ان الثورة الدامية التي قام بها اهالي الكرك ضد الحكم التركي والتي ادت الى عدد كبير من الضحايا من الطرفين لم يكن سببها تعسف الاتراك ونهبهم للارزاق او لتضييقهم على حريات المواطنين وانما كانت بسبب « النظام » وهو ان الحكومة التركية اصدرت قانون التجنيد الاجباري مما ادى الى فزع الاهالي

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب

لان ذلك معناه انهم سيغادرون بلدتهم وان يعيشوا في بلاد غريبة . ولذا اعملوا القتل بالجنود الاتراك على الرغم من رد الفعل الانتقامي من جانب الاتراك .

*

نستطيع تلخيص ما تقدم بان الادب الشعبي في الاردن يبرز صورة شريرة للاب تتحطم وتستبدل بالاب الاجتماعي ، وبان الريفي الاردني قد القى ثراءه الداخلي على ظروفه الخارجية واصبح جزءا منها ولذا فقد حريته . كما ان هناك امرا اخر وهو ان الثورة ضد الرمز الشرير للاب تنسحب على عدة رموز اجتماعية كالسلطة الحاكمة والغول وجميع الارواح التي يؤمن بوجودها .

فما هو سبب ذلك ؟

ان المجتمع الذي تتم في داخله هذه الثورة هو مجتمع ابوي وسيطرة الاب تكاد فيه تكون مطلقة على ابنائه . والاب هنا يستمد سلطته من القوة الاقتصادية التي تمنح العائلة الرزق للعائلة ، والقوة المحاربة التي تصد عنها الخطر وتحميها ومن الطقوس والتقاليد الاجتماعية .

والطفل منذ ولادته يواجه بالاب كقوة تحد من رغبته في التعبير عن طاقته الحيوية وحريته . ان الاب يمارس هذه السلطة وقد نفذت اليه جميع القيم والطقوس الاجتماعية خلال الاحتكاك المتصل بالمجتمع فهو هنا يمثل السلطة الاجتماعية وقسوة الظروف التي تواجه مجتمعا شبه بدائي .

وعند نمو الطفل نحو مرحلة الرجولة يتم امران بالنسبة له :

الاول : انه خلال ذلك النمو قد تمثل القيم والمواقف الاجتماعية حتى اصبحت تكون جزءا من شخصيته ، وتم خلال هذه العملية القاء حريته على الظروف الخارجية .

ان علينا هنا ان نحدد مدلول تلك الحرية التي فقدها . انها حرية التعبير عن غرائزه وليست الحرية الاجتماعية التي لم يتملكها يوما حتى يفقدها . ان هذا يعني ، ايضا ، ان الصراع في المرحلة من حياة الطفل مع الاب كان صراعا بين غرائز الانسان المنطلقة وبين الانسان الاقتصادي . ومع نمو الطفل وتمثله للتراث الاجتماعي ينتصر الانسان الاقتصادي الذي يمثل تلاؤم الانسان مع ظروفه ، اي تلاؤم الغرائز وتوجيهها حتى تصبح عادات اجتماعية .

الامر الثاني انه مع نمو الطفل نحو مرحلة الرجولة تضعف سلطة الاب بسبب تقدمه في السن وعجزه عن اكفاء عائلته اقتصاديا ، فيتقدم الابن ليحل مكانه بعد ان اصبح هو بدوره ابا .

ولكن ما دام هذا التلاؤم يتم فما هو سبب اصرار الادب الشعبي على كشف ثورة الابن ضد الاب ؟

ان الادب الشعبي هو نتاج فنانين من ابناء الشعب ، والعملية السيكولوجية في داخل الفنان تتم من خلال امتلاكه لحريته ، انه ينتزع نفسه من الضرورات الالية لحياته وتأخذ في الانسياب عملية نصف واعية ، قلقة تنثال فيها الصور عليه دون ان يستطيع السيطرة عليها كاملة . انها لحظات مؤلمة ، ينفصل فيها الفنان عن ظروفه ، محتشدة ، وقد اصبح تيار اللاوعي يبرز من خلال اشكال التعبير الاجتماعي .

ان الفنان الشعبي يعبر احيانا بصور شديدة البساطة والروعة عن مستوى ادراك طفلي كحكاية العنزة التي اكل الغول ابناءها فعادت الى البيت واخذت تطرق الباب قائلة :

« يا قلنزح ، يا بلنزح ، افتح البابين وانزح ، في دويداتي حليب في قريناتي عشيب . »

وعندما تكتشف ان الغول قد اكل ابناءها تستعين بحداد القرية فيصنع لها قرونا من الحديد ، بينما يصنع للغول قرونا من الطين فتبارز الغول وتشق بطنه وتستخرج اطفالها احياء من بطنه .

ان الكلمات التي ترددها العنزة هنا ـ بالاخص كثرة الحاءات ـ لها نفس طابع كلام الطفل وثرثرته الساذجة .

ان هذا بالطبع لا يعني ان الفنان يمتلك هذه المشاعر وحده ، اذ انها موجود في جميع افراد المجتمع ولكن الفنان هو الذي استطاع التعبير عنها .

ان الريفي الاردني يمضي في الحياة وهو مثقل بالاحساس بالذنب معبرا عن ذلك بانتشار طقوس التطهير والتكفير في هذا المجتمع بشكل ملحوظ . مثال ذلك استعمال الاحجبة للوقاية من العين الشريرة ، تقديم الضحايا لاسترضاء ارواح الموتى ، النذور ، مفهوم النجاسة المرتبط بالاحاسيس الغريزية ، تعليق الخرزة الزرقاء على عين الطفل ، التصدق على الفقراء ، اخراج الارواح الشريرة من المرضى ، تبخير المرأة التي ولدت حديثا والمريض والعريس وعديد لا حصر له من تلك الطقوس.

ان جذر هذا الاحساس هو الخوف من الحرية ومن الانفصال عن عالمه الذي اصبح يكون جزءا منه . فارتكاب اي عمل يثير نقمة المجتمع يدفعه الى ممارسة عديد من طقوس التطهير .

فمن اين نشأ هذا الفزع في نفسه ؟

انها ذكرى ثورة الطفل ضد قيم مجتمعه متمثلة في الاب ، والتي ما زالت تعتمل في نفسه ولكنها يكبتها من خلال ممارسة الطقوس . وهذا القلق والسبل المتبعة للتخلص منه هي نفس ما يحس به ويتبعه المريض بالعصاب او الهستيريا ، ولكن الفارق هو انها بالنسبة للانسان الريفي اصبحت شكلا اجتماعيا معترفا به ، الا ان هذا لا ينفي ان الشخصية الريفية تكبت طاقاتها الحيوية وان تلك الطاقات المختزنة تكون ارهاصا مستمرا للتمرد لا تستطيع الطقوس ان تقضي عليه نهائيا.

ومن الطريف هنا ان نلاحظ كيف ان الادب الشعبي الاردني يعتذر عن ثورة الطفل ضد الاب بتصويرها بانها ثورة ضد رمز اخر شرير للاب

غالب هلسا

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣